الدكتور محمد سالم الجرح
رائد الدرس اللغوي المقارن

أ.د. محمد صالح توفيق (*)

المقدمة :

فمن باب الوفاء للدكتور محمد سالم الجرح، أحد سدنة اللغة والدّين، ممن تخرّج في دار العلوم، بارك الله حياتها وحمى حماها، وسدّد خطاها – أن نخط هذا البحث نذكّر به القُرّاء والباحثين بما خلفه هذا العالم اللغوى الكبير في تأليفه وتدريسه، نلتقط شذرات غاليات من عقد مشواره العلمى، بما فيها من خصوصيات نادرة تجمع بين الأصالة والمعاصرة، شكّلتها معارف الشرق وثقافاته، وحاورتها أفكار الغرب .

ما أصعب أن يجد الطالب الكلمة الأولى ليبدأ بها الحديث الفيّاض عن أستاذ له في تخصصه وكليّته، لم يسعد يوماً برؤيته، ولم يقرأ أعماله – وهي جارية بين أيدى طلابه – وإنما قرأها تراثاً هادياً، بعد وفاة أستاذه – رحمه الله – فوجد غرس دار العلوم لم يُقض معه، وحرص على جمع مؤلفاته التي فنى في تحصيلها ولم تفن بفنائه، بعد أن صار إلى ربه راضياً مرضيًّاً . وحق على الخلف أن يظل وفيًّاً للسلف بإبراز جهودهم العلمية، وبيان ذلك دون الإغراق في خضم التفاصيل والجزئيات.

فكرة هذا البحث تولّدت لدى منذ خمسة أعوام سنوات بعد أن أهدانى الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبادة محاضرات الدكتور محمد سالم الجرح للعام الجامعى ١٩٥٩ / ١٩٦٠ الفرقة الرابعة بكلية دار العلوم، وأنا مدين لأستاذى الذى كتب في إهدائه لي عن هذه المحاضرات (ما زلتُ أحتفظ بها، فهى جزء من تاريخى

(*) الأستاذ بقسم علم اللغة كلية دار العلوم – جامعة القاهرة.

والإنسان جزء من التاريخ). وطال بى الوقت حتى نبهنى الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد العزيز إلى ضرورة أن أفرد بحثاً عن الدكتور الجرح، فإذا كان هناك أجر أو مدح لما كتبت فالأستاذان المعلمان لى أحقّ به وأولى.

إن من حق الدكتور محمد سالم الجرح أن تصدر عنه مقالات لغوية حتى تتعرّف الأجيال اللاحقة على هذه القمة الشامخة، وسوف تجد هذه الأجيال قدوة لها، في صبره على تحصيل العلم، وثباته في الدفاع عما يؤمن به . آمل أن أكون من عارفى فضله، وأن يمدّ الله في عمرى حتى أبرز مواهبه العلمية المتميزة، وأعماله العلمية . ولا أملك إلا أن أقول : إن التاريخ يشيد بدار العلوم حين يشيد بأعلامها .

أولاً : تعريف موجز بالدكتور محمد سالم الجرح :

اسمه: محمد محمد سالم الجرح، ولد في قرية (حنون – زفتى – غربية)[1] ولا نعرف شيئاً عن طفولته، ولا نعرف عن شبابه سوى أنه من خريجي دار العلوم عام ١٩٤٨، ثم حصل على دبلوم اللغة العربية عام ١٩٥٠، بعد أن أتمَّ دراسة السنوات الأربع في دار العلوم، وكان من أوائل دفعته، فعُيّن معيداً بالكليّة، مع زميليه عبد الحكيم حسان عمر داود، وعبد الحكيم عبد الحميد محمد بلبع[2] .

سافر في بعثة علمية إلى إنجلترا، وحصل على الدكتوراه من جامعة لندن في تخصص (النحو المقارن للغات السامية)، وبعد عودته إلى مصر اختير مدرساً في كليّته دار العلوم، فحلّ فيها بين شيوخه وزملائه محلاً كريماً يملأ قاعات الدرس بأفكاره الجديدة في مجال الدراسات السامية، ويفيض على طلابه من فضل بحوثه المبتكرة، ما يملؤهم إعجاباً به وإكباراً لمقامه . وأحس الطلاب أن علماً

---

(١) هكذا اسمه كاملا في تقويم دار العلوم ١ / ٨٦٥، وهامش مقاله (نظرة تحليلية مقارنة) ص ٦٠ .

(٢) تقويم دار العلوم ١ / ٨٦٥ لـ أ / محمد عبد الجواد .

جديداً هو" النحو المقارن " أخذ طريقه إلى أذهانهم، ليرفع الستر عن قصة النحو العربى، ويعالج كثيراً من مشكلاته .

ومما عرفناه أنه سافر أستاذاً زائراً للعمل محاضراً للدراسات العربية والسامية في الجامعات الأمريكية في نوفمبر ١٩٦٢[١] . ويبدو أنه استمر مسافراً في أمريكا لمدة ثلاث سنوات حيث قال: "وطرت إلى أمريكا في نوفمبر سنة ١٩٦٢، وخلت أن صلتى بهذا البحث قد انتهت ربما إلى الأبد – وخلال إقامتى بالولايات المتحدة وقيامى بالتدريس في جامعة بنسلفانيا بمدينة فلاديلفيا نما إليَّ خبر وفاة الأستاذ العقاد (ت ١٩٦٤)"[٢]. ويبدو لنا أنه خلّف تراثاً عظيماً في مؤلفاته وتلاميذه، وأنه علّم أكثر مما كتب في جامعات مصر والعالم العربى، فقد سافر إلى السعودية وعمل هناك أستاذاً مساعداً في كليّة اللغة العربية جامعة أم القرى، وناقش فيها كثيراً من أطروحات الماجستير والدكتوراه، وهي تعّد صوراً لنشاطه الفكرى المتنوع .

أما العطاء الفذ لهذا العالم الكبير فهو في أستاذيته بكلية دار العلوم والدكتور غانم قدورى الحمد، وهو من أهل العراق، ومن طلاب الدار، تتلمذ على يد الدكتور الجرح، ونهل من فيض عطائه العلمى والثقافي، يؤكد ذلك في مقولته التالية التي ذكرها تحت عنوان (ذكريات غانم قدورى الحمد) :

– " ومن شيوخى في علم الأصوات : الدكتور كمال بشر والدكتور عبد الصبور شاهين والدكتور محمد سالم الجرح" [٣].

– الخميس ١١ تموز ١٩٧٤ = ٢١ جمادى الآخرة ١٢٢٤ هـ، قال :

---

(١) انظر : (التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية) نفتالى ڤيدر ترجمة د / محمد سالم الجرح، المقدمة، مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٩٦٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) موقع: http://www/dr-ghanim.com

" مضى أكثر من شهر ونصف وأنا أتابع المواد التي سنمتحن فيها وأشعر أنى قد بذلت جهداً لا بأس به، وفي الجانب الآخر أشعر أحياناً أنى لم أوفِّ المادة حقها من الدرس ..... وإزاء هذا الموقف تزدحم الأفكار وتضطرب، وتتسلل الشكوك والهموم، وكأن مسألة الامتحان مسألة حياة أو موت – أعوذ بالله – كنت أمس قد التقيت بالدكتور محمد سالم الجرح – أستاذنا في مادة اللغة العبرية واللغات السامية – وبدا له منى بعض القلق على نتيجة الامتحان، ولكنه بالغ في طمأنتى على النتيجة، وقال : لا تفكر، أنا راضٍ عنك، وقد أفضتُ ذلك الرضا على غيرى، فاطمئنّ ..... الحق أننى نلت إعجابه بالبحث الذى قدمته له عن الكتابة العربية وتاريخها، وأسأل الله أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه، فأنل أجر العاملين"(١).

وأضاف الدكتور غانم قدورى الحمد :

– بدأت أفكر في الخطوة التالية التي يجب علىّ أن أخطوها بعد انتهاء الامتحان، وكأنه ليس لى أن أقضىَ أياماً من غير تفكير أو عمل، قلت لأذهب إلى الدكتور محمد سالم الجرح، كان ذلك عصر أمس – الأحد ٢٨ تموز ١٩٧٤م – بيته قريب من مسكننا، وقد كنت متردداً في تلك الزيارة، ولكن حسن استقباله قد أبعد عنى وحشة ذلك الشعور، ولم تمض إلا دقائق حتى انهال علىّ الدكتور الجرح بسيل من شتائم المدح ! وعن قابليتى في الدراسة والفهم، وأثنى على إجابتى في الامتحان، وقال : إنها كانت أحسن ورقة بين الذين امتحنوا في مادته، وعرّج على المواد الأخرى، وطمأننى بأنه قد سأل كلاًّ من الدكتور بشر والدكتور عبد الصبور شاهين عن نتيجة امتحانى عندهم فذكروا له أن إجابتى جيدة، وأنها تبشر بخير . ومن هنا عرجت إلى رغبتى في أن أعمل معه في

(١) الموقع الإلكتروني السابق.

رسالة الماجستير، فقلت : شرف لى أن أكون تلميذاً لك في رسالة الماجستير، فأجابنى : يا أخى إن الشرف لى أن تكون تلميذاً لى "[١].

وتوقف التسجيل مع الدكتور الجرح بعد أن بلغه من الدكتور أمين السيد أن الدكتور الجرح ربما ذهب إلى السودان منتدباً أو مفتشاً، كما أن موضوعه – وهو المقطع الصوتى – يحتاج إلى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية . وذكر الدكتور غانم : " التقيت أمس الدكتور محمد سالم الجرح في بيته، وبحثت معه موضوع المقطع، وقد بدا لى الأمر أكثر صعوبة لا من حيث المادة ولكن من حيث المنهج الذى يريد الدكتور أن يربطنى به، وهو التعمق بدراسة المقطع في اللهجات والحديث اليومى وكذلك في اللغة العربية الفصحى ..... "[٢].

وانتهى أمر هذا الموضوع على يد الدكتور عبد الصبور شاهين، فكما يقول الدكتور غانم : " .... سألت الدكتور الجرح عن إمكانية سفره خلال السنة القادمة، فقال : لا بأس بمناقشة الموضوع مع الأستاذ الدكتور عبد الصبور والدكتور بشر، ذهبت اليوم إلى بيت الدكتور عبد الصبور شاهين وحدثته عن الأمر، فقال : إن موضوع المقطع لا يستحق أكثر من مقالة في مجلة، وخابت الآمال .... "[٣].

ومع غزارة هذه المعارف التي يقدمها لنا الدكتور غانم الحمد عن أستاذه الدكتور الجرح، فهى تمثل حسوة طائر من بحر عميق، إنها مجرد لافتات تنبئ عن غزارة علم الدكتور الجرح وأخلاقه العالية مع طلابه من حلم وصبر وسعة صدر .

---

(١) الموقع الإلكترونى السابق.

(٢) الموقع الإلكترونى السابق.

(٣) الموقع الإلكترونى السابق.

ومع أن الكلية والقسم – كما عرفت – كانت تُضيِّق عليه في الإشراف على طلاب القسم إلا في تخصصه الدقيق – وهو الدراسات السامية – فإن شهادة الغانم تؤكد أن الدكتور الجرح تجاوز التخصص الدقيق إلى آفاق أوسع من الإبداع في الفكر، وكان مصدر الخير لمن حوله، ومنار علم لتلاميذه .

سألت كثيراً عن الدكتور الجرح من عاصره من زملائه وطلابه ولم أجد إجابة شافية، سوى أنه حجز نفسه عن الناس في أواخر السبعينيات، ورضي بالعزلة التي ضربها على نفسه، والصرامة التي تعامل بها مع الآخرين . ويبدو أنه انقطع عن الدار بعد سفره إلى السودان، وعرفت من خلال مجلة جامعة أم القرى أنه كان أستاذاً مساعداً للغة العربية في هذه الجامعة، وأشرف على عدد من الرسائل العلمية، وذلك في أوائل الثمانينيات . ولا أعرف بالتحديد زمن وفاته.

أقول : لهذا الأستاذ الكريم فضل علىّ سابغ في بداياتى العلمية، فقد قرأت مذكرة علمية من تأليفه عنوانها (المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى) لطلاب اللغة العربية، لسنة ١٩٦٤، وقتها عرفت أن العلم بالساميات هو الوسيلة المفيدة لفهم العربية، وصارت هذه المذكرة تمثل الضياء الذى اهتديت به في تخصصى الدقيق وهو علم اللغة المقارن .

ثانياً : جهود الدكتور محمد سالم الجرح العلمية .

عنى الدكتور الجرح – رحمه الله – بالتعليم كثيراً، ولم يتفرغ للتأليف، وجاء نتاجه العلمى الذى أخرجه في سبعة أعمال متنوعة وهادفة، هي :

١ – نظرة تحليلية مقارنة على الضمائر العربية :

نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الثانى والعشرون ص ٦٨ – ٧٤، سنة ١٩٦٧ م .

٢ – النشاط المجمعى العربى : أصيل أم دخيل ؟

نشر في مجلة المجمع اللغوى القاهرى، الجزء الثامن والعشرون ص١٦١–١٧٩، سنة ١٩٧١م .

٣ – الجذور الفعلية في اللغات السامية :

حوليات دار العلوم، العدد الخامس ص ١ – ٢٢، سنة ١٩٧٤ م.

٤ – التأريخ للعربية – أهميته ودراساته ومناهجه :

نشر في مجلة المجمع اللغوى القاهرى، الجزء الخامس والثلاثون ص ٩٠– ١١٠، سنة ١٩٧٥ م.

٥ – التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية لـ نفتالى فيدر، ترجمة الدكتور محمد سالم الجرح، نشر مكتبة دار العروبة – القاهرة ١٩٦٥ م.

٦ – محاضرات اللغة العبرية لطلاب الفرقة الرابعة بكلية دار العلوم للعام الجامعى ١٩٥٩ / ١٩٦٠ م.

٧– المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى لطلاب اللغة العربية، مذكرة طلابية سبتمبر ١٩٦٤ م.

ويبدو أن أستاذنا الدكتور الجرح ظل يؤدى رسالته العلمية لطلاب دار العلوم وسائر كليات اللغة العربية في العالم العربى (في المدرجات)، وجاء ذلك على حساب إنتاجه العلمى، صرّح بذلك فقال : " ..... ولازلت أرجو أن تتيح الظروف للمتخصصين في الدراسات السامية أن يفلتوا من ضغط المدرج "، وأن تقل محاضراتهم الأسبوعية – التي تصل أحياناً إلى ثلاثين محاضرة – حتى يستطيعوا أن يقدموا للمكتبة العربية أبحاثاً جادة في هذا المجال، تكمل نقصاً ملموساً وتسد حاجة واضحة"[١].

(١) المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى لطلاب اللغة العربية، د / محمد سالم الجرح، ص ١ ، سبتمبر ١٩٦٤.

ويمكننى أن أشير إلى أمرٍ عانى منه الدكتور الجرح – ويعانى منه كل من يتخصص في الدراسات السامية – وهو أن الكلية والقسم تضيّق دائرة المتخصص في الدراسات السامية في أن يدرّس العبرية فقط ومجملها (ست ساعات في العام الجامعى لطلاب الليسانس)، وفي ذلك غبن واضح من كل الوجوه، يوضحه ما يلى:

١– حرص المتخصصون في الدراسات السامية أن تكون لديهم معرفة عامة للغات أخوات العربية، حتى يمكنهم الوقوف على التطورات التي أصابت العربية على مدى خمسة آلاف عام من الزمان .

٢– دراسة هذه اللغات السامية ومعرفتها لم يكن حائلاً دون معرفة التراث العربى القديم ومستويات علم اللغة الحديث، ولم يكن ذلك غامضاً على المسئولين فى جامعات الخليج العربى التي زارها وأعير إليها المتخصصون في الساميات، ومنهم : الدكتور عبد العزيز برهام، والدكتور محمد سالم الجرح، والدكتور محمد صالح توفيق، والآن من المعارين الدكتور الفارس محمد عثمان، والدكتور طارق سليمان، ويقومون بتدريس فقه اللغة العربية وعلم اللغة الحديث بكل مستوياته واتجاهاته، وتركوا أثراً طيباً وبحوثاً قيمة فيما أسند إليهم من تدريس .

٣– أمامنا المثال والنموذج الأستاذ الدكتور شوقى ضيف، لم يقل له أحد : النحو ليس تخصصك، أو التفسير، أو النقد، لقد حطم هذه القاعدة التخصصية التي نلجأ إليها كثيراً فراراً من التعب، أو البعد عن خوض المعارك العلمية في القسم، أو اكتفاء بشعار التخصص الدقيق . رأينا الدكتور شوقى ضيف يكتب فى الأدب والبلاغة والنحو وعلم اللغة وعلوم القرآن، اقتحم كل هذه الفروع اقتحام العالم المتخصص في هذا الفرع أو غيره . ولا ننس الأستاذ حامد عبد القادر والدكتور إبراهيم أنيس، وكل من درس الساميات في بعثته وأفاد منها في مؤلفاته، وبعدهم الدكتور رمضان عبد التواب، والدكتور محمود فهمى حجازى وآخرون .

٤- جاء في مقدمة (المنهج المقارن) : " عدت من لندن إلى كلية دار العلوم في جامعة القاهرة بشهادة الدكتوراه في النحو المقارن للغات السامية، أحمل في قلبى آمالاً طموحة لما يمكن أن أقوم به من دراسات وأبحاث، ولكنى ووجهت بالصعوبات من جهة، وجرفتنى دوامة العمل نظراً لقلة المتخصصين في الميدان....." (١).

لقد تكشّف لى من خلال الاطلاع على بحوث الدكتور الجرح أنه أبرز من يمثّل الدراسات السامية المقارنة، فلم يقف جامداً عند مقولات الأقدمين، كما جاوز مرحلة الانبهار بآراء المستشرقين، فكان خير مثال للثقافة العربية الدرعمية التي أخذت من القديم أصالته ومن الحديث طرافته .

ويمكننا أن نقسم فكره اللغوى، والوارد في مؤلفاته إلى فكرتين رئيسيتين:

الأولى : آراؤه في تاريخ هذه اللغات السامية، وتطورها .

الآخرة : ما تفرّد به من آراء لغوية.

أولاً : آراء الدكتور الجرح في تاريخ اللغات السامية وتطورها :

كانت مدرسة دار العلوم المعهد الشرقى الوحيد الذى تكفل بإخراج مدرسين متفقهين في اللغة العربية والعلوم الإسلامية من شريعة وتاريخ وفلسفة، ومتخصصين في اللغات السامية التي أثرت فيها وتأثرت بها، ولذلك حرصت الدار على أن يبتدئ طالب اللغة العربية بمعرفة قواعد اللغة العبرية، في دراسة غير متعمقة في اللغة، وإنما يحصلون منها ما يفهمهم اللغة ويساعدهم على المقارنة بين العربية وأخواتها .

ومن الثابت أن العناية بتدريس اللغة العبرية واللغة الآرامية بدأ منذ عام ١٩٢١ م في دار العلوم؛ لكى يلمّ طلابها بتاريخ اللغة العربية، ويقفون على علاقة هاتين اللغتين باللغة العربية، يقول الأستاذ محمد عبد الجواد : " وقد جرت

---

(١) السابق والصفحة .

العادة حين تقرر تدريس بعض اللغات السامية بدار العلوم أن يدرس الطالب لغتين من هذه الفصيلة السامية، بحيث يدرس إحداهما دراسة أساسية وتدرس الأخرى دراسة إجمالية. وقد اختير لهذا الغرض (العبرية والسريانية)؛ لأن اتصال اللغة العبرية بهما أشد من اتصالها بغيرهما من سائر اللغات السامية، وجعلت العبرية لغة أولى لشدة مشابهتها للغة العربية، من حيث المادة اللغوية، والأسلوب، وطرق الاشتقاق "[١].

وأكّد ذلك الدكتور الجرح، فقال : " .... إن هذا الاهتمام وتلك العناية يرجعان إلى عشرات الأعوام، قبل ظهور إسرائيل الدخيلة إلى حيز الوجود، إن اهتمام اللغة العربية بدراسة اللغة العبرية يرجع إلى ذلك الوقت الذى التقت فيه ثقافتنا بالثقافة الغربية .... لم تكن دروس اللغة العبرية بالنسبة لطالب اللغة العربية إلا لوناً من دروس فقه اللغة، أو النحو المقارن، ينمى الإحساس اللغوى عند الطالب، ويساعده على تحليل ظواهر لغته على منهج جديد لم يألفه من قبل، وذلك هو المنهج التاريخى التطورى المقارن[٢].

ومن قرائن المقارنة بين اللغات السامية عند الدكتور الجرح :

١- قدم العربية وحداثة سائر اللغات السامية :

يقول الدكتور الجرح : "إن اللغات السامية المهاجرة على الرغم من قدمها التاريخى، تبدو وكأنها أكثر حداثة، وأسبق تطوراً من تلك اللغة السامية التي لازمت الجزيرة، على الرغم من أن ما وصلنا من نصوصها حديث، قد يبلغ الفرق بينه وبين تراث اللغات السامية المهاجرة نحو ألفى عام "[٣].

---

(١) تقويم دار العلوم للأستاذ محمد عبد الجواد، ١ / ٧٤ – ٧٥ .

(٢) المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى لطلاب اللغة العربية، ص ٢.

(٣) السابق ص ٤ .

ومما ركز عليه، وأضافه : " العبرية التي تفيدنا جداً في الدراسات المقارنة للغات السامية هي العبرية القديمة، التي يكاد يكون تراثها اللغوى تراثاً عربياً، نستعيضه عن تراثنا العربى المفقود ... ولن نحس، ونحن ندرس اللغة العبرية القديمة، أننا ندرس شيئاً غريباً علينا، أو مخالفاً لطبيعة لغتنا، فالتشابه بين العبرية وبين لغتنا العربية سواء منها الفصيح أو العامى واضح أكيد، يثبت نفسه في كل خطوة، وعلى كل مستوى من مستويات الدراسة، وكلما تقدمنا في دراسة اللغة العبرية ازداد اقتناعنا بهذا الشبه القوىّ بينها وبين العربية ..."، إلى أن يقول : " وكل هذا يؤكد وحدة الأصل بين اللغتين العبرية والعربية"(١).

ومن آرائه القيّمة : " العجز عن مثل هذه المقارنة السامية – كان ولا يزال – عيباً شنيعاً من عيوب نحاتنا منذ بدأت دراسة النحو العربى أيام الخليل وسيبويه حتى الآن، وأن هذا العيب الشنيع قد حان تداركه، فيجب ألا نسمح لباحث أن يواصل دراسته في النحو العربى، أو في فقه اللغة العربية، أو أن يجمع مجامعها دون أن يسلح نفسه بما يلزم ذلك من مقدرة على مقارنة الظواهر اللغوية في لغتنا العربية بنظائرها في أخواتها السامية"(٢) .

ويغنينا عن الإطالة هنا ما ذكره الدكتور الجرح عن ضمائر التثنية، قال : "الأرجح أن اللغات السامية جميعا عرفت ضمائر تثنية يوماً ما، كما عرفت تثنية الأسماء الظاهرة . وقد كانت تثنية الضمائر أسرع في الاختفاء من تثنية الأسماء الظاهرة التي تأخذ في الاختفاء أيضاً، ولا نجد لها إلا بقايا قليلة في لغة سامية كاللغة العبرية . ومعنى هذا أن اللغة السامية الأم عرفت التثنية في الأسماء

(١) السابق، ص ١٣ –١٤ .

(٢) السابق، ص ١٤ .

الظاهرة والضمائر وحافظت اللغة العربية على ذلك؛ لأنها أكثر اللغات السامية محافظة على ملامح الأم المفقودة ....." [١].

وقد نثر الدكتور الجرح كثيراً من الأدلة على قدم العربية وحداثة أخواتها في مقاله القيِّم " التأريخ للعربية : أهميته ودراساته ومناهجه "، قال : " نستطيع أن نقول: إن اللغات الأكادية والبابلية والأشورية ليست إلا لهجات عربية قديمة، نزحت من وطنها الأصلى القديم في الجزيرة العربية إلى بيئات جديدة في أرض الرافدين، وتعرضت لألوان من الصراع اللغوى مع لغة كالسومرية، لا تنتمى إلى الأسرة العربية أو السامية، وآل بها هذا الصراع – مع عوامل التطور الأخرى – إلى أن تختلف تلك اللغات عن الوضع الذى كانت عليه في الوطن الأصلى الأول.

ومعنى ذلك أن تاريخ اللغة العربية يرجع إلى الوراء ألوفاً من السنين قبل أن تكتب بها قصائد الشعر الجاهلى القديم، ويوحى بها القرآن الكريم، وتحرر بها ذخائر الأدب والمعرفة الإنسانية على مختلف فروعها وأشكالها، وتترجم إليها كنوز اللغات الأخرى على تنوع فنونها وألوانها "[٢].

وأضاف رؤية علماء الساميات للغة العربية فقال : " من المألوف أن تستمع إلى علماء المقارنات السامية وهم يقررون أن اللغة العربية هى أم اللغات السامية جميعاً، أو أقرب هذه اللغات إلى الأم المفقودة وأنها بهذه المكانة أكثر اللغات السامية حرصاً على القديم، ومحافظة على الملامح اللغوية الأوليّة "[٣].

---

(١) مقال : نظرة تحليلية مقارنة على الضمائر العربية، ص ٥٨، من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، العدد الثانى والعشرون، القاهرة ١٩٦٧ م .

(٢) مقال : التأريخ للعربية : أهميته ودراساته ومناهجه، للدكتور محمد سالم الجرح، ص ٩٠ – ٩١، من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، العدد الخامس والثلاثون سنة ١٩٧٥ م .

(٣) السابق ص ١٩ .

وأخيراً قرّر : " أن اللغة العربية هي – لغوياً – أكثر اللغات السامية محافظة على الأوضاع الأولى، وإن كانت – أدبياً – أكثر تقدماً وارتقاءً[١].

وفصّل ما قرره سلفاً بقوله : " إن لغتنا المجيدة تكاد تحتل وضعاً فريداً بين اللغات الإنسانية، فعمرها الأدبى يبلغ ألفاً ونصف الألف من السنين، وعمرها الاستعمالى – كما تدل على ذلك الدلائل العديدة – يسبق ذلك بما لا يقل عن ثلاثة آلاف أخرى من الأعوام .... "[٢].

ومما ينبغي أن نشير إليه هنا أن الدكتور الجرح اتصل بالتراث العربى في منابعه الأصلية، كما مزج بين الأصالة والمعاصرة في كتاباته، وقد وضح هذا في حديثه عن المعجم العربى في مقاله (النشاط المعجمى العربى : أصيل أم دخيل؟)، وبعد عرض مفصل رأى أن العرب لم يكونوا أول الشعوب في تأليف المعجم، إذ وُجدت شعوب أقدم من العرب، وتوفرت لهم ما توفر للعرب من ظروف تاريخية خاصة، وركز على أن الحضارة الإسلامية حضارة وسيطة تاريخياً بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة، وجغرافياً تقع في الوسط بين حضارتى الشرق والغرب . وبعد دراسة مستفيضة استنتج أن التجربة المعجمية العربية عربية أصيلة من بدايتها إلى نهايتها، وتعدّ انعكاساً صادقاً للظروف التاريخية التي مرت بها العربية[٣].

ومن باب الإنصاف أن نذكر إحدى مناقشاته العلمية، والتى لخصها بقوله : "وكل ما يعكر صفو هذا الاستنتاج هو ما ينوه إليه المستشرقون من أننا نحس بشيء من الطفرة في ظهور معجم العين للخليل، بفكرته المعقدة، ومنهجه العلمى الدقيق، وترتيبه الصوتى، وهدفه الطموح على الاستيعاب والشمول، فلا يمكن أن

---

(١) السابق، ص ٩٣ .

(٢) السابق، ص ١٠٨ .

(٣) ينظر مقال : النشاط المعجمى العربى : أصيل أم دخيل ؟ للدكتور محمد سالم الجرح، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٢، سنة ١٩٧١ م، الصفحات ١٦١ – ١٧٩ .

يكون ذلك نمواً طبيعياً لرسائل الغريب والنادر، أو المفردات الدالة على الزرع والمطر . وهذه الطفرة في ظهور العين، بالإضافة إلى ظروف حياة الرائد الخليل نفسه – وأنه عاش في خراسان قريباً من الهند، وتأثر بالثقافة الهندية في نواحٍ أخرى من جهوده العقلية – كل هذا يوحى بالشك في احتمال تأثر الخليل نفسه بالسنسكريتية. ويتحمس مؤرخو المعاجم العربية من المعاصرين كالدكتور عبد الله درويش، والدكتور حسين نصار قبله، لدحض هذه الشبهة، ويؤكدون أن الخليل قد " اخترع " هذا النظام بعقليته الفذة دون أي تأثر أجنبى" [١].

ومهما عددت من المقالات التى توضح الفكرة الرئيسية لدى الدكتور الجرح، فلن أستطيع أن أحيط بها في هذه العجالة، وحسبى أن أختم الحديث عن هذه الفكرة بما قاله عن فضل الإسلام على اليهودية، والرد على الغرب المسيحى الذى اكتفى لعدة قرون طويلة بتشويه الإسلام ومؤسساته بأسخف الأقوال، دون أن يكلف نفسه عناء دراسة هذه العقيدة، لذلك ترجم كتاب " التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية " لـ نفتالى فيدر، وصدّر هذا الكتاب بالشكر العميق للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، الذى طلب منه ترجمة هذا السفر الذى يتحدث عن علاقة العبادة اليهودية بالدين الإسلامي، وفيه الاتجاه المضاد لما درج عليه اليهود خاصة والمستشرقون عامة، أن اليهودية هي التي أثرت في الإسلام ، اعتمادا منهم على أن السابق يؤثر في اللاحق، وقال الدكتور الجرح : " وقد فندنا نحن خطأ هذا الزعم في أول حاشية لنا على مقدمة مؤلف هذه الرسالة "[٢]. ومن أهم ردوده المذكورة: " ما دام مصدر الديانات السماوية واحداً وهو الله، ووسيلة تبليغها للبشرية واحدة، وهي الوحي والرسل، وهدفها واحدًا وهو بث الخير بين البشر،

---

(١) المقال السابق .

(٢) التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية، لـ نفتالى فيدر، ترجمة د / محمد سالم الجرح هامش ص ٩ ، مكتبة دار العروبة القاهرة ١٩٦٥ .

وحتى بيئتها الجغرافية واحدة وهي الوطن السامى، فلا يكون من الغريب أن تتفق في كثير، ولا ينبغي أن يعزى كل اتفاق بينها إلى تأثير السابق في اللاحق"[١]. وما سبق يؤكد وعيه العميق بتراثه الإسلامي والعربى، والدفاع عنه ضد منتقديه .

٢ – أثر العربية في العبرية لدى الدكتور الجرح :

تتطلب معرفة حقائق اللغة العربية الإلمام بعدد من اللغات السامية؛ ولذلك حرصت دار العلوم على أن يدرس طلابها العبرية والآرامية، ثم اقتصر على العبرية فقط، لشدة التشابه بينها وبين العربية . وقد نصت اللائحة الدراسية للكلية على أن " الغرض الرئيس من تدريس اللغة العبرية وآدابها في دار العلوم هو مساعدة الطلاب على إدراك العلاقة القوية بين اللغة العربية – التي هي مادة تخصصهم – وبين بقية أخواتها من مجموعة اللغات السامية، التي تعتبر العبرية القديمة أبرزها، ولهذا فإن منهج تدريس اللغة العبرية في الكلية يستغل كل ما تحصل عليه الطلاب من معلومات عن الظواهر اللغوية في العبرية لإثارة نظائرها في اللغة العربية ومناقشتها ومقارنتها"[٢].

وقد تنبه الدكتور محمد التونجى إلى أن الغرض من دراسة اللغة العبرية "معرفة خفايا العربية عن طريق إحدى اللغات السامية، وليس من السهل على دارس المقارنات اللغوية أن يلمّ باللغة إلمام المتكلم بها، بل إن أغلب المستشرقين يعرفون دقائق عدد من اللغات دون أن يستطيعوا التكلم بها، ناهيك عن أن هذه اللغات تنقصها روح الحوار أصلا"[٣].

إن اللغة العربية التي احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة في مفرداتها وقواعدها، هي التي أثرت في العبرية وغيرها من اللغات السامية، وتعدّ

---

(١) الصفحة نفسها .

(٢) دليل كلية دار العلوم للعام الجامعى، ٦٠ / ١٩٦١.

(٣) اللغة العبرية وآدابها، د / محمد التونجى، ص ٥ ، دار الجليل، دمشق ١٩٧٢ .

العربية هي اللغة الوحيدة التي لم تفارق موطنها الأصلى وبقيت منعزلة، مما قلل من فرص احتكاكها باللغات الأخرى . وذهب المستشرقون إلى الاعتماد على اللغة العربية لمعرفة أهم خصائص اللغة السامية الأم .

ومما لا تتخطاه العين الفاحصة الفكرة الرئيسة التي سادت في بحوث الدكتور الجرح، وهى – كما قال –: "أن العرب والعربية أصل الشعوب واللغات السامية، بل إننا لنستطيع أن نسمى الشعوب السامية كلها بالشعوب العربية، واللغات السامية كذلك باللغات العربية، فنحن نمثل الجذع الذى تفرعوا منه جميعاً "[1].

والدراسات الاستشراقية حاولت أن تزيل هذه الفكرة من الأذهان، ولكنها لم تستطع حتى الآن أن تبلغ غايتها، ولست أدرى إن كان هذا راجعاً إلى أن الذاكرة الفريدة لدى بعض علماء الشام قد نجحت في إبراز العلاقة الوطيدة والصلة الوثيقة بين العربية وأخواتها، وأن هذه العلاقة عرفها علماء الشرق قبل علماء الغرب، عرفوا أن نشأة الدراسات السامية المقارنة نواتها الأولى كانت عند العرب، والثانية عند علماء العبرية في العصر الوسيط، والثالثة عند جماعة المستشرقين .

على أن مما ينبغي التنبيه عليه أن الدكتور الجرح ذهب إلى " أن العبرية التي تفيدنا جداً في الدراسات المقارنة للغات السامية هي العبرية القديمة، التي يكاد يكون تراثها اللغوى تراثاً عربياً نستعيض به عن تراثنا العربى المفقود .... ولن نحس ونحن ندرس اللغة العبرية القديمة أننا ندرس شيئاً غريباً علينا، أو مخالفاً لطبيعة لغتنا، فالتشابه بين العبرية ولغتنا العربية، سواء منها الفصيح أو العامي، واضح أكيد"[2].

---

(١) مقدمة المترجم لـ (التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية) ص ٤ .

(٢) المنهج المقارن، ص ١٣.

ومما ركّز عليه : " يكاد التراث اللغوى الذى خلّفته العبرية – في المرحلة الأولى – يكون منحصراً بين دفتى العهد القديم، ولذلك فإن فائدة هذا المجلد العبرى، الذى يمثل مكتبة كاملة، لا تحد بالنسبة لنا؛ لأنه في الواقع ليس إلا غصناً ضخماً من أغصان أدبنا العربى القديم، الذى ابتلعت رمال الصحراء في العربية جذعه الأصيل "(١).

وقال في بحث آخر : " إن وضع اللغة العربية كلغة مركزية داخل الأسرة السامية أقرب في شئون تصريفها ونهج اشتقاقاتها إلى اللغة السامية الأم، مما يؤكد قدمها على اللغات الأكادية والبابلية والأشورية التي جاءت منها نصوص أدبية وكتب تشريع وملامح وأشعار وترانيم دينية ترجع إلى ما قبل الألف الثالثة السابقة على ميلاد السيد المسيح عليه الصلاة والسلام "(٢).

٣ – اللغات المسماة بـ " السامية " تراث عربى قديم :

المجموعة اللغوية التي تشمل (العربية بنوعيها، الآرامية، الكنعانية، البابلية، الأوجاريتية، الحبشية، العبرية .. إلخ) عرفت عند الغرب في القرن الثامن عشر باللغات الشرقية، وحين عرفت العلاقة بين اللغات السامية وزادت استطاع العالم الألماني (شلوتسر) أن يتوصل إلى مصطلح " السامية " الذى أصبح صفة مميزة لهذه المجموعة اللغوية منذ سنة ١٧٨١ م، معتمداً على ما ورد في سفر التكوين، من أسفار التوارة، وطبيعى أن تقسيم سفر التكوين للشعوب لا ينبنى على وجهة نظر لغوية(٣).

يقول الدكتور الجرح : " ونستطيع أن نتصور مدى العلاقة التي تربط أفراد هذه المجموعة من اللغات السامية إذا علمنا أن الرأي السائد الآن يُعَبَّر على أنها

---

(١) السابق، ص ١٠ .

(٢) مقال : التأريخ للعربية، ص ٩٠ .

(٣) اللغات السامية، لينودور نولدكه، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، ص ٨، القاهرة ١٩٦٣ .

جميعاً لغة أقوام كانوا يعيشون أصلاً في قلب الجزيرة العربية – التي يرى جمهور العلماء أنها هي الموطن الأصلى للساميين – وأنهم أخذوا ينزحون منها على فترات متباعدة .... فإن اللغات السامية المهاجرة – على الرغم من قدمها التاريخى – تبدو وكأنها أكثر حداثة، وأسبق تطوراً من تلك اللغة السامية التي لازمت الجزيرة، على الرغم من أن ما وصلنا من نصوصها حديث، قد يبلغ الفرق بينه وبين تراث اللغات السامية المهاجرة نحو ألفى عام "[١].

وذكر " أن هناك كثيراً من الباحثين يسمون اللغات السامية باللغات العربية؛ نظراً لأنها مشتقة من اللغة العربية في طور أقدم، ونظراً لأن متكلميها قد انسلخوا عن الشعب الذى كان يسكن الجزيرة العربية والذى هو أب للشعب العربى، وهذا هو المنطق الذى بنى عليه المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد دعواه في قدم "الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين"؛ لأنه اعتبر الآرامية عربية، ونحن نقره في هذا، ولكننا نأخذ عليه أنه لم يعتبر العبرية عربية لنفس الأسباب، فالحق أن العلاقة بين العربية والآرامية لا تختلف كثيراً عن العلاقة بين العربية والعبرية، فالثلاثة لغات سامية، وتعتبر العربية امتداداً طبيعياً لجذع الشجرة السامية، نظراً لاستمرارها في موطنها الأول وعدم هجرتها منه، بينما تعتبر كل من الآرامية والعبرية فرعاً انشق عن الجذع، وخرج عن موطنه، فإذا أطلقنا على الآرامية عربية مهاجرة وجب أن نطلق على العبرية نفس الشيء" [٢].

إن تسمية هذه اللغات ب (السامية) تسمية غير دقيقة، فهى لا تفى بالحقيقة اللغوية كاملة، كما لا ترتكز على أسس علمية، فشجرة النسب المذكورة في سفر التكوين وضعها كاتبو التوراة، وضموا إليها من يستريحون إليهم من غير الساميين كالعيلاميين وقوم، وأبعدوا من هذه الشجرة (الكنعانيين) لكرههم لهم –

(١) المنهج المقارن، ص ٧ – ٨ ، مرجع سابق.

(٢) المنهج المقارن، ص ٤ – ٥ .

وهم من الساميين – كما أنه مصطلح أريد به تزييف الحقائق التاريخية، وجعل العرب إحدى القبائل السامية العديدة، الذين لاحظَّ لهم من حضارة أو مدنية سوى الترجمة والاقتباس من حضارات من سبقهم من الشعوب الحضارية وبخاصة اليونان والرومان.

وقد أكد ذلك الدكتور الجرح في بحوثه القيّمة وانتهى إلى أن " العرب والعربية أصل الشعوب واللغات السامية، واقترح أن نسمى اللغات السامية باللغات العربية، وهو اقتراح ساد لدى علماء الشام والعراق، وإن أضافوا على المصطلح " اللغات العربية القديمة "[١].

وأعجبني ما قاله الدكتور أحمد علم الدين الجندى : " إن قائمة العائلات السامية هي تراث لغوى من تراثنا العربى القديم، الذى يشمل اللغات الأعرابية، وهو يصوّر أرومة واحدة، وتلك الأرومة أشبه بجذع الشجرة المدفون تحت رمال الزمن، أما فروع هذا الجذر العريق فتصوره اللهجات السامية الأخرى كالأكادية والآرامية والعبرية والفينيقية وغيرها، فليست كلها إلا فروعاً للجذر العريق الذى هو العربية"[٢].

وأظن أنه أول من استخدم هذا المصطلح " اللغات الأعرابية " مكان (اللغات السامية)، فهو مأخوذ من (الأعراب) الذى يدل على البدو والجزيرة العربية، فهو أوفق من مصطلح (اللغات العربية) الذى يطلق أحياناً على اللهجات العربية القديمة، ويبدو لنا أن مصطلح " اللغات الجزرية " هو الأفضل نسبة إلى جزيرة العرب التي هي مهد هذه اللغات منذ القدم .

---

(١) انظر : من تراثنا اللغوى القديم، أ / طه باقر. لغات الجزيرة العربية، د / باكزة رفيق حلمى. لغة الحديث الشرف د / إبراهيم السامرائى.

(٢) في القرآن والعربية، د / أحمد علم الدين الجندى، ص ١٧٢، نشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤١٠ هـ.

ومع ذلك فقد شاع مصطلح " اللغات السامية " في مدرسة التغريب، وقد أكون مضطراً لاستخدام هذا المصطلح الشائع إلى أن يأذن الله للاتفاق على المصطلح العربى المقترح.

ثانياً : ما تفرّد به الدكتور الجرح من آراء لغوية:

حرص الدكتور الجرح أن يعطى طالب اللغة العربية فكرة واضحة مقنعة عن النحو المقارن للغات السامية، وتلمس المقارنة خاصة بين العربية والعبرية، ومعاودة النظر في أغلب القضايا النحوية وفي فقه اللغة العربية التي درسها من قبل، على أنها مسلمات لا تحتمل المناقشة أو إعادة النظر فيها.

وأول ما يجب مناقشته ما اتصل بالأصوات التي هي المظهر المادى للغة، وكما أنها تعدّ مقدمة دراسة الصيغ الصرفية المكونة من الأصوات، ومن الثابت لغوياً وجود ظواهر صوتية كثيرة تؤثر في علم الصرف، من ذلك ظاهرة الإبدال والإدغام، والإعلال بالنقل أو الحذف، والقلب المكانى، وغيرها من الدراسات الصوتية التي تعدّ مقدمة لدراسة تركيب الكلمات والصيغ. وهناك قضايا صوتية تعدّ مقدمة لدراسة النحو كالنبر والتنغيم وغيرهما، كما أن الأصوات تعدّ مهمة أيضا في دراسة المعاجم وبخاصة أصوات اللين .

أولاً : قضايا صوتية تفرّد بها الدكتور الجرح

النظام الصوتى لا يحتاج لوقت طويل لكى يتكون، ونجد الطفل يدرب نفسه على النطق، حتى يتمكن جهازه النطقى من استيعاب جميع أصوات اللغة التي ينشأ فيها، ولا يفارقه هذا النظام الصوتى في دنياه، ما دامت أعضاء النطق لما تتأثر بمرض أو غيره. وهذا عكس النظام البنيوي الذى يحتاج في تكوينه إلى فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر، حسب قدرة الطفل على استيعاب المفردات والتراكيب التي يحتاج إليها لكي يعبر عن نفسه.

يقول الدكتور الجرح : " تبدأ كتب النحو العربى أول ما تبدأ بدراسة " التركيب اللغوى "، وهذا خطأ منهجي جسيم، فقبل أن ندرس لغة من اللغات على المستوى التركيبى فيها، لا بد أن نكون قد درسناها على المستويات الأدنى من المستوى التركيبي، والتي لا بد أن تسبق المعرفة بها معرفة التركيب اللغوى، فيجب مثلا من ناحية المنهج عندما نتعرض لدراسة لغة ما أن نبدأ باستعراض الأصوات المستعملة فيها ...." (١).

إن إيراد الكلام على هذا النحو يوحى للقارئ غير المتخصص أن هذا هجوم على النحو العربى، ولكن الذى ذكره الدكتور الجرح إنما هو مبنيّ على اختلاف المنهج المعياري مع المنهج المقارن، والذى يستوقف النظر هو أننا في أى دراسة لغوية لابد أن نبدأ بالأصوات.

والواقع أن كتاب سيبويه جاء بالأصوات في نهاية كتابه، وكان هذا من سوء حظ النحو العربى لأن من جاء بعده أعجب به، وأصيب التفكير النحوى بشلل، ودار الجميع فى فلك سيبويه، واتخذوه أساساً لدراستهم، وصارت الكتب النحوية مجرد شروح له أو اختصارات، أو تعليقات عليه، أو جمع لشواهده وشرحها ....أو....أو (٢)

١- الأبجدية الصوتية : مما تفرّد به الدكتور الجرح، ولم أجد أحداً قال به من علماء الساميات، قاله : "والأصوات الصامتة في اللغة العبرية القديمة ثمانية وعشرون، يرمز لها باثنين وعشرين من الحروف، أي أن هناك أصواتاً ستة، يشترك كل منها مع صوت آخر قريب، ويرمز للصوتين بحرف واحد. وربما دلنا اشتراك صوتين في رمز كتابى واحد، على أن أحد الصوتين لم يبدأ كصوت مستقل في اللغة وإنما بدأ كمغاير في النطق للصوت الآخر، ثم أخذ يستقل بعد

(١) المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى، ص ١٦ .

(٢) للمزيد حول هذا الموضوع ينظر : البحث اللغوى عند العرب، ص ١١٢.

ذلك في التطورات اللغوية اللاحقة. فإذا كانت التاء والثاء مثلاً مشتركتين في رمز عبرى واحد، فربما كان هذا الآن صوت الثاء لم يكن أصلياً في اللغة، وإنما دخل عليها أولاً كمغاير لصوت التاء فى سياق صوتى خاص، ثم أخذ مع الزمن ينفصل عن أصله، ويأخذ طابع الصوت المستقل كما نجد في اللغة العربية "[1] .

فالثابت لدى علماء العبرية أن الأبجدية فيها تتألف من اثنين وعشرين حرفاً يجمعها قولك : (أبجد، هوّز، حطّى، كلمن، سعفص، قرشت). وليس فيها المجموعتان (ثخذ – ضظغ) اللتان تختصان بهما العربية وحدها. ولو أمعنا النظر فيما قاله الدكتور الجرح لوجدنا أنفسنا أمام تفسيرات صوتية جديدة للأبجدية العبرية، نذكر منها :

أ – الأصوات الصامتة (المنطوقة) في العبرية ثمانية وعشرون صوتاً.

ب – الرموز الكتابية اثنان وعشرون رمزاً.

جـ – هناك أصوات ستة منطوقة في العبرية ليس لها رمز كتابى، وإنما يستفاد برموز أخرى تدلّ عليها في حالات خاصة.

د – هذه الأصوات الستة يحتمل أنها لم تكن أصلية في اللغة، وإنما جاءت بديلة للأصوات الستة الأخرى، ثم انفصلت مع الزمن عن الأصل لها كالتاء والثاء.

وهكذا يمتعنا الدكتور الجرح بما يكتب، ونمضى معه موافقين أو مخالفين، وحسبه أن يحرك الساكن هنا لدى علماء الساميات الذين خالفوه بكل تأكيد في رأيه، ويرون أن العربية هي التي احتفظت بالأصوات كاملة، واندثر بعضها في سائر اللغات السامية وبخاصة بعض الأصوات الأسنانية (ث، ذ، ظ) ومن أصوات الإطباق (الضاد والظاء). ويبقى أن الدكتور الجرح كاتب جادّ يفتح أمام قرّائه أبواباً من النظر، ويستخرج منهم ألواناً من الفكر.

---

(١) المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى، ص ١٧.

ومما يذكر في مجال الأصوات أن الدكتور الجرح وجد أن مجموعة من الأصوات العبرية القديمة لم تعد تنطق كما كانت، وفسّر لنا ذلك بقوله : " إن اليهود المعاصرين، الذين تأثروا في نطقهم للعبرية بالعادات اللغوية الخاصة بالشعوب الأوربية التي عاشوا بين ظهرانيها أجيالاً طويلة، وهكذا أصبحت العين تنطق بالألف، والقاف تنطق كالكاف والطاء كالتاء، والحاء كالخاء، كما أصبحت الصاد تنطق كأنها تاء ساكنة وسين (تس)، ولم يكن ذلك كله خاضعاً لسنن التطور اللغوى الطبيعية، وإنما كان عجزاً من اليهود المعاصرين – وهم أبعد ما يمكن عن الطبيعة السامية – عن أن يعطوا هذه الحروف نطقها السامى الأصيل"(١).

كما أشار إلى أن الخط العبرى القديم صعب الكتابة، ولذلك استعمل اليهود في العصر الحديث الخط اليدوى للكتابة مع الحفاظ على وجود الخط المربع القديم في القراءة والطباعة، وبهذا تكون العبرية الحديثة قد تخلصت من أصوات الإطباق نهائياً، ولم تبق من الأصوات الحلقية سوى الألف والخاء؛ لأن كلا منهما معروف بصورة أو أخرى في اللغات الأوربية، كما خلت تماماً من صوتى الثاء والذال، وصار صوت الصاد ينطق (تس) في اللسان العبرى الحديث.

ومما قاله الدكتور الجرح، ويتصل بالمقارنة السامية : " وقد يصعب علينا أن نجد في العربية الفصحى أمثلة للكسرة الطويلة الممالة، والضمة الطويلة الممالة (لا نكاد نعرف إلا " مجريها " مثالاً للأولى)، ولكن العربية العامية مليئة بالأمثلة التي تحتويها، فمن أمثلة الأولى في العامية : بِيت، غِيط، حِسِين، زِيد، قِلّين ....إلخ. ومن أمثلة الثانية في العامية : صُوم، نُوم، تُوم، يُوم، بُول .... إلخ"(٢) .

---

(١) المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى، ص ٢٥ .

(٢) السابق، ص ٣٤ .

٢- أصوات الحلق : من الثابت لدى علماء الساميات أن العربية هي التي احتفظت بأصوات الحلق الستة (أ، هـ، ع، ح، غ، خ) في حين أن الأكدية أقل اللغات السامية احتفاظاً بأصوات الحلق، فلم يبق فيها سوى الهمزة والخاء، متأثرة في ذلك باللغة السومرية، وصارت الهمزة تقابل الهمزة والهاء والعين والحاء والغين في السامية الأم. وفي اللغة العبرية تقلصت أصوات الحلق إلى أربعة (أ، هـ، ع، ح) وتحولت الخاء إلى حاء والغين إلى عين.

وقد تحدث الدكتور الجرح عن خصائص صويتة لحروف الحلق العبرية، قال: " وأهم تلك الخصائص ما يلى :

أ- لا تقبل التضعيف، أي أنه لا تظهر فيها الشدة الثقيلة أبداً ..... ويعوض منها بمدّ الحركة السابقة .... والواقع أن الحركات القصيرة عدا الفتحة عندما تطول لدواع صوتية طارئة في اللغة العبرية تطول إلى نظريها الممال لا الخالص.

ب – لا تقبل حروف الحلق السكون الناقص، فإذا اقتضيتها الصيغة أن تأخذ السكون الناقص فإنها تأخذ بدله نصف حركة أو حركة مركبة من السكون وحركة قصيرة أخرى ..... ولا تميل حروف الحلق أيضاً إلى السكون التام، ففي كثير من الأحوال إذا اقتضيتها الصيغة أخذ سكون تام فإنها تأخذ بدله أيضاً حركة مركبة.

ج – تميل حروف الحلق – ما عدا الألف – لأن تسبق أو تحرك بالفتحة ..... فإذا سبق حرف الحلق بحركة قصيرة غير الفتحة فإنها تغير إلى الفتحة في هذا المثال، أما إذا سبق بحركة طويلة غير القامص (الفتحة الطويلة) فإننا نستعير فتحة، ونحشرها بين الحركة الطويلة السابقة لحرف الحلق وبين حرف الحلق نفسه، وتسمى هذه الفتحة الفتحة المسروقة أو المستعارة ..... "[١] .

(١) المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى، ص ٤٥ – ٥١.

ويبقى التنبيه على عدة أمور في خصائص الأصوات الحلقية :

-استنتج الباحثون من علماء الساميات، وفي مقدمتهم بروكلمان ورايت وبورشتاين وغيرهم، أن العربية في هذا ناطقة بما كان في نطق السامية الأم، أي بالهمز والهاء والعين والحاء والغين والخاء، وأن اختفاء هذا في بعض اللغات السامية طارئ عليها(١).

- ثبت أن اللغة العربية الفصحى كالعبرية تميل فيها الأصوات الحلقية إلى الفتحة، والمثال على ذلك أن الفعل الماضى في العربية يكون- في الغالب- مفتوح العين في الماضى والمضارع معاً إذا كانت عينه أو لامه حرفاً من أحرف الحلق، نحو: فَتَحَ يَفْتَحُ، نَهَرَ يَنهَرُ. وشبيه بهذا فتح عين المستقبل المجرد في العبرية إذا كانت عينه أو لامه حرفاً حلقياً مثل : יִשְׁמַע yišma‹ يسمع وكذلك الأسماء الثلاثية الساكنية الوسط، والتي ثانيها حرف حلق، يجوز تحريكها بالفتح نحو: النَّهْر والنَّهَر، والصَّخْر والصَّخَر.

٣ – كسر أحرف المضارعة :

قال الدكتور الجرح ملخصاً الظاهرة : " يحرك حرف المضارعة بالكسرة القصيرة الخالصة عادة، ويستثنى من ذلك الألف فإن الكسرة تمال معها، ويجمع العلماء على أن حرف المضارعة عموماً كان في الأصل مفتوحاً، كما نجده في العربية الفصحى وفي أحوال خاصة في العبرية، ولكن هذه الفتحة حولت في الظروف العادية إلى كسرة، كما حولت حركة حرف المضارعة في العربية العامية بل وفي بعض لهجات العربية الفصحى من الفتحة إلى الكسرة (قارن : بِضرب، بِنْجَح) (٢) .

وقد أوضحت الدراسة والمقارنة لأصوات اللغات السامية وجود رأيين متعارضين في أصل حركة حرف المضارعة، على النحو التالى :

---

(١) الساميون ولغاتهم د / حسن ظاظا، ص ١٩، دار القلم دمشق الطبعة الثانية.
(٢) المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى، ص ٦٧.

الرأي الأول :

كسر أحرف المضارعة أثر سامى قديم، وجد في العربية كما وجد في أخواتها العبرية، والسريانية، والآرامية، والحبشية، تلك اللغات التي اطرد فيها كسر المضارعة.

وقد جمع الأستاذ الدكتور أحمد على الدين الجندى الشواهد، وأيد كلامه بما ساقه سيبويه والرضى وصاحب اللسان وغيرهم، منبّهاً إلى أن ذلك الكسر يقع عند غير الحجازيين(١).

ومن أنصار هذا الرأي الدكتور خليل يحي نامى حيث قال : " إن ظاهرة كسر أحرف المضارعة كانت شائعة الاستعمال عند الجماعات السامية الأولى في مضارع الأفعال التي على وزن فَعِل يفعِل، وذلك للتعال بين الماضى والمضارع، أو للدلالة على كسر عين الماضى، أو بغير ذلك من الأسباب الأخرى التي نجهلها"(٢).

وذهب الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب إلى أن كسر أحرف المضارعة أقدم تاريخياً من فتحها، قال : " والفتح في أحرف المضارعة حادث في رأى، في العربية القديمة، بدليل عدم وجوده في اللغات السامية الأخرى، وبدليل ما بقى من الكسر في بعض اللهجات العربية القديمة"(٣).

وقد عرفت هذه الظاهرة في لهجات العرب باسم التَّلتله .

الرأي الآخر : فتح حرف المضارعة هو الأصل السامى القديم الذى حافظت عليه العربية الفصحى، وكل اللهجات التي اعترف سيبويه بصحة أخذ اللغة عنها

---

(٢) اللهجات العربية في التراث، د / أحمد علم الدين الجندى، ١ / ٣٨٨ وما بعدها، الدار العربية للكتاب ١٩٨٣.

(٢) دراسات في اللغة العربية، د / خليل يحي نامى، ص ٤١، دار المعارف بمصر د.ت.

(٣) فصول في فقه العربية، ص ١٢٥.

تكسر أحرف المضارعة. ولهجة الحجاز وحده هي الأقرب إلى العربية الفصحى والأصل السامى القديم وهو الفتح.

ولقد كان الدكتور الجرح واحداً ممن تبنّى هذا الرأي، وقد ذكرناه سلفاً، ويبدو أن ابن منظور ممن يؤيّد الفتح في حرف المضارعة حين نص على أن " و(تِعلم)، بالكسر لغة قيس، وتميم، وأسد، وربيعة، وعامة العرب، وأما أهل الحجاز، وقوم من أعجاز هوازن، وأزد السّراة، وبعض هزيل، فيقولون : (تَعلم) والقرآن عليها"(١).

وقال حاييم رابين : " ..... وهذه الكسرة توجد في العبرية وفي الآرامية الغربية والأوجريتية. وفي لهجات قضاعة التي تجاور المناطق الكنعانية، تمثل الكسرة حرف المضارعة للغائب المفرد. وهناك ما يحمل على الظن بان سب بالفرق بين حركة حرف المضارعة نشأ بصفة ثانوية في الدائرة التي حددناها، ثم انتشر إلى أرض قضاعة، ومنها إلى لهجات شرقى الجزيرة ووسطها. وهذا يعنى أن السوابق ذات الفتحة في العربية مأخوذة عن لغات قديمة"(٢).

٤ – القلب المكانى :

يعدّ القلب المكانى ظاهرة صوتية يراد بها تبادل صوتين لمكانيهما، بأن كلا منهما مكان الآخر، كما في اللهجة المصرية:

أرانب ..... أنارب مسرح ..... مرسح

ومن أمثلة القلب المكانى تاء الافتعال التي قال عنها " برجشتراسر " : "والافتعال تاؤه في العربية دائماً تالية لفاء الفعل، وكانت في الأصل سابقة لها كما

---

(١) لسان العرب مادة (وقى) .

(٢) اللهجات العربية الغربية القديمة، حاايين رابين، ص ١١٦، ترجمة عبد الرحمن أيوب. جامعة الكويت ١٩٧٥.

في الآرامية، لكنها كانت تؤخر بعد فاء الفعل إذا كانت هي واحداً من حروف الصفير"[١].

وللدكتور الجرح وجهة نظر فريدة حول صيغة الافتعال قال : " بقيت الصيغة السابقة بإضافة المقطع **הת** إلى بداية الفعل. والرأى المقبول هو أن أصل هذا المقطع هو التاء فقط، وليست الهاء إلا وسيلة للبدء بنطق التاء الساكنة، فهى تقابل في اللغة العربية همزة الوصل في صيغة مثل : (اسَّمَّع) التي هي في الأصل (اتْسَمَّع) أعنى : صيغة المبالغة من (سمع) زيدت عليها التاء في البداية"[٢].

وقال أيضاً عن صيغة (**הִתְפַּעֵל**) : " هي صيغة المبالغة الدالة على الانعكاس بزيادة تاء في أولها، ثم اجتلاب هاء ليتوصل بها إلى نطق تاء الانعكاس الساكنة، ومن ثم فهى تتقابل تماماً مع الصيغة العربية (تفعّل) (التي قد تصبح اتْفَعّل) [٣].

وأضاف : " وكما تزيد على صيغة (فعّل) العربية تاء، فتصبح (تفعّل) نزيد تاء أيضاً على الصيغة العبرية، ولكن العبرية تسكن هذه التاء، ثم تجتلب هاء تتوصّل بها إلى البدء بنطق التاء الساكنة فتصبح**הִתְקַטֵּל**

وهي تقابل عندنا في العامية الفعل الماضى " اتعَلَّم " في جملة، مثل : "محمد اتعلم العبرى بسرعة " ففي الصيغة العامية سكنت تاء الانعكاس، فجيء لها بهمزة وصل، كما كسرت عين الفعل وأصلها الفتح، وقد خطت العبرية نفس هاتين الخطوتين، إلا أنها استعملت الهاء بدلا من همزة الوصل كما هو متوقع، وأطالت كسرة العين إلى كسرة طويلة ممالة نظراً لسقوط النبر عليها"[٤].

---

(١) التطور النحوى للغة العربية لبرجشتراسر، تعليق د / رمضان عبد التواب، ص ٥٩ .
(٢) المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى، ص ٨٤.
(٣) السابق ص ٨٨ .
(٤) السابق ص ٨٩ .

ولى تعقيب على ما قاله أستاذنا الدكتور الجرح من أن الأصل السامى القديم (اتفعّل)، وقد صارت ألف الوصل هاء في العبرية، وهذا اجتهاد، وكله توقف عند هذه الصيغة، ولم يتعرض للتطور الصوتى بأن الصيغة العبرية تتقدم فيها الفاء على التاء حين تكون الفاء أحد أصوات الصفير، وهذا يؤكد وجود القلب المكانى بين الفاء والتاء، لذلك ذهب " ابن بارون " العبرى إلى أن الافتعال هو الأصل الذى يظهر في الأفعال التي فاؤها أحد حروف الصفير أو التفشى قال : "جاءنا الافتعال على حقيقته في الأفعال التي فاؤها شين أو سين أو صاد مثل :**ישתמר، יסתתר، נצטדק** فإن فاء الفعل في مقدمة للتاء على حقيقته في الافتعال"(١).

ومما يستأنس به هنا التفسير الصوتى الذى قاله الدكتور عبد الرحمن أيوب: " السبب في تقدم التاء الزائدة على الأصل الأول من أصول الكلمة وجود تناظر بين وزن (انفعل) ووزن (افتعل) فكلاهما يدل على معنى ووزن المبنى للمجهول. وقد أثر هذا التناظر الدلالى في حلول الوزن ذي التاء الزائدة محل الوزن ذي النون الزائدة في بعض الأمثلة المصرية، ومثال ذلك : انكسر واتكسر وانعدل واتعدل. وقد يفضى هذا في النهاية إلى الاكتفاء بأحد الوزنين عن الآخر. ومن أجل هذا التشابه الدلالى قيس وزن " افتعل " على (انفعل)، فتقدمت التاء الزائدة كما تقدم النون على الأصل الأول"(٢).

ثانياً : قضايا صرفية تفرّد بها الدكتور الجرح :

الصرف يهتم بأقسام الكلمة، والتغيرات التي تطرأ على جذر الكلمة، وإيضاح المورفيمات الدالة على العدد والنوع، وصار علم الصرف يدرس بنية الكلمة، وما

---

(١) الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية لابن بارون، ص ٦٨ –٦٩، نقله إلى العربية د / أحمد محمود هويدى، مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة ١٩٩٩.

(٢) محاضرات في اللغة، د . عبد الرحمن أيوب، ص ١٧٦، مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٦.

يكون بينها من علاقات تصريفية واشتقاقية وما قد يلحق بها من سوابق أو لواحق أو حشو، تؤدى إلى تغيير في المعنى.

ويعدّ علم الصرف خطوة مهمة للنحو أو هو جزء منه، ولا يمكن الفصل بينهما فصلاً تاما، وهما معا يسميان " علم القواعد ". وقد ساد هذا المفهوم في القرون الأولى للهجرة، ولم يكن التصريف عند ابن جنى، في القرن الرابع الهجرى، إلا جزءاً من النحو. ويبدو أن المازنى من أوائل من خصصوا للأبنية الصرفية كتباً مستقلة، وكتابه " التصريف " أقدم كتاب مستقل كامل وصل إلينا في الأبنية الصرفية.

وللدكتور الجرح وقفات جيدة، تدل على حسن نظر وتمام فقه في شأن الأبنية الصرفية في اللغات السامية، والذى يلفت النظر فيها هو دوران قضايا التراث في عقل هذا الأستاذ الذى خُصّص في تدريس العبرية في الدار، لقد بان لنا أن التراث اللغوى شغله الشاغل وهمه الناصب.

١ – الجذر في اللغات السامية :

لعل أغنى بحث وقع في يدى – وأنا طالب في السنة التمهيدية للماجستير – هو" الجذور الفعلية في اللغات السامية كما تنعكس في العربية والعبرية"[١]، وفيه بدأ بالحديث عن طبيعة الجذر الفعلى في اللغات السامية، حيث قال الدكتور الجرح : " فالمعروف لدى علماء النحو والصرف للغة العربية والعبرية، ولسائر اللغات السامية، أن الأكثرية الساحقة من الأفعال ترتد على جذور ثلاثية ... بينما ترتد أقلية من هذه الأفعال إلى جذور ذات أربعة فونميات من الصوامت الأصلية. هذا ما يشير إليه علماء الصرف، ويقصدون بذلك ليست هناك جذور

(١) نشر هذا البحث في حوليات كلية دار العلوم، العدد الخامس للعام الجامعى ١٩٧٤ / ١٩٧٥ في الصفحات من ١– ٢٢ .

ثنائية، ولا جذور أطوال من الرباعية.... ولكننا نحن المعنيين بالدراسات التاريخية المقارنة لا نقنع بذلك"[١].

فهذا حديث الدكتور الجرح، سقته على سبيل الوجازة والاختصار على أن القضية لها وجه آخر، وهو الرأى السامى المقارن الذى تبناه الدكتور الجرح، ونوضحه في نقاط:

أ – قال: " كل ما نجده في العبرية، وغيرها من اللغات السامية، مما يعتبر رباعى الجذر يمكن في بساطة ويسر رده إلى جذور أولية ثلاثية أوثنائية، كما يمكن اكتشاف الخط التطورى الذى صار به الجذر الثنائى أوالثلاثى رباعياً ... وهكذا نرى أن جميع الجذور الرباعية في اللغات السامية ثانوية التكوين، وأنها ترتد إلى جذور ثنائية أوثلاثية"[٢].

ب – الجذور الثلاثية المتفقة في حرفين من الأصول والمتفقة في المعنى العام هي جذور ثنائية زيد عليها الحرف الثالث في مراحل تطورية لاحقة ليزيد المعنى تخصيصاً[٣].

ج – المضعف الرباعى الذى وزنه (فعلل) ينبغي أن نقول : إن وزنه التاريخى والواقعى هو(فعفع)، لأن وزن الثنائى " صَل " ينبغي أن يكون (فع)، حيث إنه لا ثالث له في الموزون، لكى نستطيع الإتيان بلام تقابل هذا الحرف الثالث في اليمزان، أو في القالب الصرفى"[٤].

وقال : " إن مضعف الرباعى القديم بالغ القدم. ومعناه بالتالى أنه في المرحلة التاريخية التي صيغ فيها مضعف الرباعى كانت جذور الأفعال السامية أو جذور نسبة كبيرة منها ثنائية " [٥].

---

(١) مقال : الجذور الفعلية في اللغات السامية، ص٢.
(٢) الجذور الفعلية فى اللغات السامية ص٢–٤ .
(٣) الصفحة نفسها .
(٤) السابق، ص١١.
(٥) السابق، ص١٢ .

د – هناك أفعال كانت ثلاثية الجذور منذ البداية، وكانت تستعمل جنباً إلى جنب مع الجذور الثنائية، والقول بوجود الثنائية يفسر لنا السبب التاريخى لظهور الأفعال المضعفة والمعتلة.

هـ – إن الناطق السامى قد أصدر فعلاً ذا مقطع واحد، ليدل على وقوع حدث ما.... على أن هناك عدداً من الأسماء أو الصيغ الضميرية المستقلة التي يبدو من الواضح أنها كنت دوماً ومازالت ذات حرف أصلى واحد. ومن هذه الأسماء " فو" بمعنى " فم " فليست الواو إلا لضمة الإعراب، وليست ميم " فم " إلا تمييماً كنون التنوين. .....ويبقى من الأمثلة أيضاً أسماء الإشارة ذات المقطع الواحد المفتوح مثل : ذا – تا، ثم ضمير الغائب هُ الذى صار (هو) .... "[1] .

وفكرة هذا البحث قد اختمرت في ذهن الدكتور الجرح وبقيت أكثر من عشر سنوات حتى رأت النور، فقد أشار إلى فكرة هذا البحث من قبل في " مذكرته الطلابية عام ١٩٦٤ "، حيث قال : " تتكون معظم الأفعال في اللغة العبرية – كغيرها من اللغات السامية – من أصول حرفية ثلاثة، وسواء أكان هذا هو الوضع الذى وجدت عليه هذه الأفعال من البداية، أو أنها يمكن أن تردّ إلى أصل ثنائى، – كما يرى بعض العلماء – فإن هذا بحث – على الرغم من أهميته وطرافته – لا يعنينا الآن. وهناك قلة من الأفعال العبرية التي تزيد أصولها على الثلاثة، والمعروف أن هذه أيضاً يمكن أن تردّ إلى أصل ثلاثى أو ثنائى، وهذا بحث آخر، على الرغم من طرافته لا يعنينا الآن"[2].

وهكذا بدا لنا أن الجذور تمثل قوام الأسماء والأفعال في اللغات السامية، وهي ثلاثية في الغالب نشأ من جذر ثنائى زاد عليه حرف، مما أظهر لنا الجذور

---

(١) مقال: الجذور الفعلية فى اللغات السامية، ص ٢١

(٢) المنهج المقارن في دراسة النحو العبرى، ص ٨١ –٨٢ .

الثلاثية المعتلة والمضعفة . وهناك جذور ثنائية قديمة بقيت كما هي وكذلك الجذور الآحادية.

٢ – الضمائر أصولها وتطورها :

يعدّ الضمير من صيغ الاسمية، وسمى بذلك لضموره، حين يعبر عن الاسم على سبيل الاختصار، وفراراً من تكرار الاسم كما أن الضمير يعدّ من أقدم ألفاظ اللغة، التي فرق بين جميع الشخصيات داخل الخطاب دون الحاجة إلى تكرار الأسماء الظاهرة. لخص هذه المعانى للضمير سيبويه النحو العربى (ابن جناح)، قال : " ومعنى الضمير هو أن تستر ولهذا سمت الأوائل الضمير **דָּרָן קְצָרָה** لاختصاره"(١).

وللدكتور الجرح بحثه القيم عن الضمائر، عنوانه " نظرة تحليلية مقارنة على الضمائر العربية " ويبدو لنا أنه احتشد فيه احتشاداً، ليظهر الفكر السامى المقارن من خلال هذا البحث. وقد ظهر لى من قراءة هذا البحث أن كثيراً مما عرضه عن الضمائر إنما واتاه من دربة طويلة مع اللغات السامية ولم يأته من قراءة كتب اللغة العربية فقط، وذلك ما يأتي :

أ – التفرقة بين ضمائر التكلم والخطاب وضمائر الغياب، حيث قال : " إن ضمائر الغياب ليست ضمائر بالمعنى الكامل للكلمة، فإن الضمير يدل على معناه بنفسه، أما ضمائر الغياب فإنها لا يمكن أن تدل على معناها إلا بالعائد أي : الاسم الظاهر الذى تعود إليه، ومعنى هذا أن لضمائر الغياب وظيفة إشارية فإنها تحتل مكانة وسطى بين ضمائر التكلم والخطاب من ناحية، وبين صيغة ضمائر الغياب بنصها للإشارة إلى البعيد. "(٢).

---

(١) كتاب اللمع لابن جناح العبرى، ص ١٨٨.

(٢) مقال : نظرة تحليلية مقارنة على الضمائر العربية للدكتور محمد سالم الجرح، ص ٥٧، من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الثانى والعشرون، القاهرة ١٩٦٧.

وقد أثبت البحث السامى المقارن أن " الهاء في ضمائر الغيبة عنصر إشارى أصيل فيها، وليس مستبعداً أن تكون متطورة عن عنصر إشارى آخر لعله هو التاء كما يرى وليم رايت. وأما الواو والياء في ضمير الغيبة المفرد بنوعيه فما هما إلا انزلاقات حركية أملتها سياقات صوتة معينة"(١).

وممن درس ضمائر الغيبة من علماء اللغة المحدثين من قال : " أن نوضح أن ضمائر الغيبة موضوعة في الأصل للإشارة إلى الغائب، ولكننا نجدها تستعمل أحياناً للإشارة إلى من بالحضرة، وذلك في قوله تعالى حكاية عن يوسف – على نبينا وعليه السلام – " هي راودتنى " فهى ضمير الغائبة ولكنها استعملت في الآية للإشارة إلى الحاضر .... "(٢) .

ب – عناصر صيغ الضمائر المنفصلة :

قال الدكتور الجرح : " نستطيع أن نرد العناصر التي تنحل إليها صيغ الضمائر المنفصلة جميعاً إلى ما يلى :

١– القاعدة الضميرية .

٢ – العنصر الجوهرى للضمير.

٣ – المكيف الضميرى.

٤ – حروف العماد التي يؤتى بها للفصل، أو لتعتمد عليها المكيفات الضميرية عندما تكون حركية، وتنحصر حروف العماد في الميم والنون والتاء"(٣).

ج – ضمائر التكلم المنفصلة :

ذكر الدكتور الجرح أن " ضمائر التكلم والخطاب تتفق في أن القاعدة الضميرية المستعملة بها جميعاً هي (أن)، أما العنصر الجوهرى للمفرد المتكلم

---

(١) ضمائر الغيبة : أصولها وتطورها، د / فوزى الشايب، ص ٣٢ ، حوليات كلية الآداب جامعة الكويت ١٩٨٧م.

(٢) السابق ص ١٤.

(٣) مقال : نظرة تحليلية مقارنة إلى الضمائر العربية، ص ٥٧ – ٥٨ .

فهو الكسرة الطويلة التي تظهر في الضمير العبرى المنفصل، وقد قلب فتحة طويلة في الضمير العربى المنفصل في الفصحى، ولكنه لا يزال موجوداً في بعض اللهجات العامية التي تقول " أنِى ". وأما العنصر الجوهرى في دمع التكلم فهو النون، وتلحق بها الواو التي هي مكيف ضميرى دال على جمع الذكور، وقد قلبت هذه الواو(أي الضمة الطويلة الخالصة) فتحة طويلة خالصة في هذا الضمير في اللغة العربية في حالات الاتصال، بينما بقيت ضمة قصيرة عند الانفصال" (١).

وركز في حديثه على أن العنصر اللغوى الذى اشتق منه ضمير المتكلم يتخلف عن العنصر اللغوى الذى اشتق منه ضمير جمع المتكلم، كما بيّن السبب في ذلك وهو أن ضمير جمع المتكلم ليس جمعاً حقيقياً للمفرد المتكلم، فليس "نحن" جمعاً لأنا، فنحن تعنى أنا وهو وهي مثلاً، ولا تعنى أنا وأنا وأنا. كما فسّر وجود ضمير المتكلم للمفرد والمذكر والمؤنث، ولا يوجد ما يميز بينهما، ورأى أن الصيغة الواحدة المستعملة لضمير المتكلم هي الصيغة الأصلية، أي صيغة التذكير، إذا إن التأنيث فرع التذكير كما يقرر نحاة العرب دائماً" (٢).

وذهب إلى أن وضع ضمائر التثنية في اللغة العربية قلق، وبين سبب القلق فعل : " لا نجد في العربية ضمائر للتثنية في حالة التكلم، ومثلاً لا تميز العربي في ضمائر التثنية خاطباً وغياباً بين المذكر والمؤنث، فتستعمل " أنتما " و"هما" لهما معاً. وقد أوحى هذا الشذوذ إلى بعض الباحثين أن التثنية في الضمائر بدعة اخترعتها العربية اختراعاً، ولم ترثها عن الأم السامية ..... إن ما نراه من حالات التثنية في الضمائر العربية ليس مقدمة لظاهرة تحاول العربية ابتداعها، وإنما هو بقية لظاهرة سامية تحرص العربية على التمسك بها " (٣).

---

(١) مقال : نظرة تحليلية مقارنة على الضمائر العربية، ص ٥٧ – ٥٨ .
(٢) السابق، ص ٥٨ .
(٣) السابق، ص ٥٨ – ٥٩ .

ج – التفرّد بتفسير الحاء الموجودة في ضمير المتكلم الجمع :

قال الدكتور الجرح : " يكتفى الكثيرون من الباحثين بالإشارة إلى أن الحاء هنا لغز، ليس من السهل تفسيره، ويقولون " لعل اللغات السامية الأم قد استعملتها لأمر أولآخر لا ندريه، ثم ورثتها، اللغات السامية التي تولدت من هذه الأم ! ونحن نرى أن من الممكن تفسيره هذه الحاء على النحو التالى :

عندما أردنا أن نصل العنصر الجوهرى للضمير (وهو نون جمع المتكلمين) بالقاعدة الضميرية " أن " وجدنا من الأنسب الإتيان بحركة طويلة لتفصل بين النونين خوفاً من إدغامهما أو سقوط أحداهما، وهكذا صار للضمير (أنانو) – وفي اللغات السامية صور لضمير جمع المتكلمين تطابق هذه الصورة – ثم حول هذا المد الحركى إلى هاء كلون من إغلاق المقطع المفتوح، كما تحول بعض اللهجات القديمة في جنوب الجزية العربية ألف التثنية إلى هاء، فنقول في " كتابان " مثلاً " كتابهن " فصار الضمير " أنهنو" ثم كان من السهل أن تتحول هذه الهاء إلى حاء. وهكذا صار الضمير " أنحن، أنحنو" فإذا لم نأت بحركة فاصلة فإننا نضطر إلى إدغام النونين أو إسقاط إحداهما، وهذا ما فعلته العبرية في الصورة الأخرى لهذا الضمير، وهي " آنو"، فوجود هذا الضمير العبرى بلا حاء يدل على أن الحاء ليست عنصراً أصيلاً في الضمير، وإلا لما جاز حذفها، وتعليلنا هذا تؤيده نظائر كثيرة يضيق المقام عن سردها الآن"[1].

وهذا الذى قرره الدكتور الجرح حول ضمائر التكلم يعدّ من الحقائق اللغوية التي أكدتها الدراسات المقارنة للضمائر في اللغات السامية، أوجزها في نقاط :

١– ضمير المتكلم المفرد مركب من : (أن) ومن (الهمزة) التي هي العنصر الجوهرى للضمير. وهناك رأى آخر يرى أن ضمير المتكلم المفرد (أ) متبوعاً بالنهاية الإشارية (نى) في العبرية، ولا حاجة إلى تعليل الكسرة

(١) نظرة تحليلة مقارنة على الضمائر العربية، ص ٥٩ – ٦٠ .

الطويلة في (أنى) بأنها منقلبة عن فتحة طويلة[1]. ويترجح لدينا ما رآه الدكتور الجرح.

٢ – ضمير المتكلم المجموع (نحن) يختلف عن مفرده، أى : (أنا) اختلافاً تاماً، وليس بينهما شيء من العلاقة التي تعودنا أن نراها بين الجمع ومفرده.

٣ – تفسير الحاء الموجودة في (نحن) لم يعرض لها علماء الساميات بالتفسير الصوتى الصحيح الذى قاله الدكتور الجرح، وهذه بعض الأبحاث التي تخصّصت في الحديث عن الضمير (نحن) لو تفسر لنا الحاء.

أ – رأى في أصل الضمير (نحن) للدكتور خليل محمود عساكر (صحيفة المدينة المنورة بالسعودية العدد ٩٤٣١ الخميس ١٨ رمضان ١٤١٣ هـ).

ب – ضمير المتكلم المرفوع للدكتور خليل يحي نامى، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد التاسع عشر، الجزء الأول، مايو١٩٥٧م.

ج – الضمير (نحن) دراسة لغوية في بناء الممثل الصرفى، د. طارق نجم عبد الله، مجلة العربى، العدد الخامس والثلاثون ١٩٩١ م .

د – المقايسة في صيغ الضمائر السامية للدكتور رمزى منير بعلبكى، مجلة الأبحاث السنة ٢٨ لعام ١٩٨٠ م .

وفي المقال الأخير عرض الدكتور رمزى الصيغ التي وردت في اللغات السامية دالة على ضمير المتكلمين، ولم تخل من عنصر الحاء، ثم ذكر لنا آراء عديدة ضعّفها حول تفسير الحاء، ولم يذكر لنا الرأي الصحيح الذى وجدناه عن الدكتور الجرح – رحمه الله – في بحثه القيّم .

---

(١) دراسات في فقه اللغة العربية، د / السيد يعقوب بكر، ص ٤٧، مكتبة لبنان بيروت ١٩٦٩.

ثم تحدث الدكتور الجرح عن بقية الضمائر من ضمائر الخطاب وضمائر الغياب وكلاهما ضمائر رفع منفصلة، وردها إلى العناصر التي ذكرناها من قبل كما تحدث عن ضمائر النصب والجر، ولا تكون إلا متصلة، وأعاد رأيه الفريد وهو أنه " ليست هناك ضمائر مستترة على الإطلاق ".

ولنا وجهة نظر في عد وجود الضمائر مستترة على الإطلاق، مع أن علماء العبرية قد وضعوا قواعد لغتهم على غرار قواعد النحو العربى خلال القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين. وها ابن جناح العبرى (سيبويه العبرية) يشير إلى وجود الضمير المستتر حيث قال : " وأما الفعل المستقبل فإنه يستتر أيضاً فيه ضمير الفاعل الواحد إذا تقدم ذكره، كما قيل : **אִם – יְהוָה לֹא יִשְׁמֹרעִיר**(مزامير ١٢٧ / ١) = إن لم يحرس الرب المدينة..... "[1].

* *

(١) كتاب اللمع لابن جناح العبرى، ص ١٩١، مرجع سابق .

الخاتمة :

هذه بعض جهود الدكتور محمد سالم الجرح في نشر الدراسات السامية المقارنة، سقناها على سبيل الوجازة والاختصار، وقد عشنا بها زمناً رغداً. أقول : (بعض جهوده)؛ لأن هناك قضايا صرفية أخرى ونحوية ودلالية في بحوثه لم يتسع المقام لعرضها، ولهذا بحث آخر تكون فيه الإفاضة عن كل هذه القضايا. وكان بودى لو أطلت وأوفى الأستاذ حقه، فالمكتوب هنا قطرة من محيط عطاياه، وقديماً قالت العرب : كفى بالقلادة ما حفّ بالعنق.

وما أحب أن أختم بحثى قبل أن أؤكد ما بدأت به : الدكتور الجرح دخل ميدان الدراسات السامية المقارنة خدمة وعوناً لقضيته الكبرى، وهي اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، وبيان فضل الإسلام والحضارة الإسلامية، وظهر هذا واضحاً في عناوين بحوثه وبخاصة (التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية) لـ نفتالى ڤيدر، فقد حرص على ترجمته والتعليق عليه، تلبية لنداء أستاذه عباس محمود العقاد، والذى لخّص ملامح مدرسة دار العلوم في قوله : "فالدرعميٌّ لغويٌّ سلفى عصرى، ولكن على منهج فريد في بابه بين مناهج المعاهد السلفية والمدارس الإفرنجية...."[1]، وهذا ما اتسم به الدكتور الجرح – رحمه الله.

إن الدكتور الجرح حطّم قاعدة التخصص الدقيق، وجعل دراسته وتدريسه للغة العبرية تبعاً لا أصالة، وتجاوز هذا التخصص إلى آفاق أوسع، وكتب في كل مستويات اللغة من أصوات وصرف ونحو ودلالة، وترجم ما يؤكد فضل الإسلام على اليهودية، وصحّح نتائج في الدرس اللغوى القديم من خلال تعمقه في اللغات

(١) نقلاً عن الدكتور أحمد درويش قالها في كتاب (عاشق العربية الدكتور أحمد مختار عمر)، والأستاذ العقاد قالها في حديثه عن الشاعر على الجارم ابن دار العلوم.

السامية وخيرٌ من هذا كله أنه قد ترك تلاميذ، وأعدّ منهم ولا أعددهم، عرفوا كيف ينتفعون بعلمه، رحمه الله رحمة واسعة، ونفع الناس بذكراه، كما نفعهم به في دنياه.

* * *